قارون

وهذا قارون ، واحد ، من أقارب موسى ، أغناه الله فأطغاه الغنى وأرْداه وبَغَى ، وإنَّ الإنسان ليطغى ، أنْ رآه استغنى ، وآتاه الله مالاً كثيرًا ، فكنزه فى الخزائن ، وكثرت لديه الخزائن ، حتى إن مفاتيحها كثرت كثرة أعجزت الأقوياء الأشداءَ عن حملها ، والاحتفاظ بها .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ (القصص الآية ٧٦)

وفرح قارون بغناه فرحًا شديدًا ، فطغى وبغى . وتعالى على الناس ، وأهدر كرامتهم ، وسَخَّرَ الفقراءَ وسَخِرَ منهم ، وحملهم على منافقته .

ولقد كان قارون إقطاعيًّا ، ضرب المثل للإقطاع والإقطاعيين ، اغتنى من عرق الكادحين ، وسَمِن جسمه من دماء الفلاحين ، واكتظت خزائنه من هزال المساكين ، وعاش هو على فَنَاءِ الآخرين .

فأذلهم بفقرهم ، واستعبدهم بضعفهم ، وتكبر عليهم ، وتجبَّر فيهم ، وظنَّ أنه سيخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولاً .

وافترى فى غناه ، حتى لم يكتف بالقصر الواحد ، فبنى القصور ، ولم يكتف بالقصر المحدود الغرف ، فبنى قصر لابيراتت فى الفيوم ، بثلاثة آلاف حجرة ، عدا الأبهاء والشرفات ، والأفنية والأحواش ، والحدائق والبساتين ، والأسوار والأنهار ، وما تزال إلى يومنا آثار قصره فى إقليم الفيوم فى مصر ، تعثر بها معاول الحفارين ، من طلاب الآثار .

وها هى ذى بِركة قارون فى محافظة الفيوم بمصر ما تزال شاهدة على غناه ، مخلدة ذكراه .

* * *

فأين الناس من غناك يا قارون ، لقد ألَّبت الناس عليك ، وألهبت أحشاءهم بكراهيتك ، وزوغت أبصارهم ببريق ذهبك ، وخلَّبت لعابهم بما زخرت به موائدك .

ألا تراعى الله يا قارون فيهم ؟ ألا تجعل لهؤلاء الضعفاء المحرومين نصيبًا من نعيمك ؟ ألا تحاسب نفسك على ضريبة غناك قبل أن يحاسبك مولاك ؟ ألا تدَّخر شيئًا لأخراك مما أنت ممتع به فى دنياك ؟

ألا تعرف يا قارون أن الإحسان إلى الفقراء ، إحسانٌ إلى الله ، لأنهم عيال الله ؟

ألا تجعل شكر نعمة الله عليك ، أن تخرج الزكاة ، وهى فرض عليك .

* * *

ويل لك يا قارون ، فقد قابلت فضل الله عليك ، بكفرانه وجحوده ، وفجرت فى الناس ، وحرمت الجائع ، وأعريت الكاسى ، واستعبدت الأحرار وعِثت فى الأرض فسادًا !

أما كان يكفيك ، أن تتمتع فى الدنيا ، بمطعم فاخر حلال ، وأن تلبس اللباس الفاخر الزاهى الحلال ، وأن تسكن المسكن العظيم الذى لا يُشعر البائسين بأنهم فى الأرض وأنت فى السماء ؟

إذ قال له قومه ، المخلصون له ، المحبُّون لمصلحته ، الخائفون على نعمته أن تزول بهذا التباهى ، والإغاظة للمحرومين ،قالوا له : لا تفرحْ يا قارون ، إن الله لا يحب الفَرِحين ، الذين استخفهم الفرح ، فطير صوابهم ، وغيَّر نفوسهم ، وحجَّر عواطفهم فأرداهم فى الهاوية .

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(القصص الآية ٧٧)

* * *

يا وِقايةَ الله من الغرور ! إذا ملأ الإنسان ، فنَسى نفسه ، وحمَّلها فوق قدرها وطاقتها !

يا دَهَاك الله يا قارون ، حين تدَّعى أنك أعلم الناس أجمعين ، وأن غناك هذا كان لك من علمك .

وماذا كان مقدار علمك ، حتى خصَّك الله بكل هذا الغنى من دون الناس أجمعين ؟ وحتى تقول

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

(القصص الآية ٧٨)

* * *

وحتى لو صحَّ ما ادَّعيت ، أنك عَلِمتَ التوراة ، وحذقْت تهاويل علوم الكيمياء ،وفَقِهت أصول قوانين التجارة ، وتبحَّرْت فى أقانيم الدهقنة ، وتعمقت فى دقائق العلم بكنوز يوسف ، حتى لو صحَّ كل هذا ، فإن العلم الصحيح يا قارون ، يوسع العقل وينميه ، ويرقق القلب

ويزكيه ، ويلطف العاطفة ، ويهذب النفس الجامحة ، ويخضض شوكة الكبر ، ويمزق حجب الغرور ، ويقى صاحبه مصارع الحمقى المغرورين .

* * *

ولو كنت تعلم يا قارون ، أن العلم من العقل والفكر ، وأن الفلاسفة والعلماء أوسع الناس عقلاً وأرجحهم فكرًا ، وأن عقلك الناصح كان يحتم عليك أن تشترى الناس من حولك بمالك ،وأن تأسرهم بإحسانك ، والإنسان عبد الإحسان ، لو كنت تعلم ، لعملت بما علمت !

ذلك هو العقل يا قارون ، الذى ينتج العلم ، فأين أنت من العلم ! حين تدعى أنك إنما أوتيت الغنى لأنك عالم !

* * *

الحق ، أن هذا الادعاء ، كان مظهرًا من مظاهر طغيان الغنى . وأن الله قد أهلك من قبلك من الأمم ، مَن هم أشدُّ منك بطشًا ، وأكثر جمعًا ، فما أغنى عنهم مالهم ، ولا حماهم بطشهم وقوتهم .

* * *

وذنوبك هذه يا قارون ، كلها محسوبة عليك ، تسبقك إلى الله بين يديك وهى مُثبتةٌ فى سجلك ، شاهدة على إجرامك ، وستؤخذ بها أخذَ عزيز مقتدر . يقول ربنا القادر :

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص الآية ٧٨)

وغريزة العناد ، وليدة ضيق الفكر ، وتصلُّب العقل ، ودليل على أن المعاند ، فقد موهبة التفاهم والاقتناع ، وأنه انحط إلى مرتبة الحيوان الجامح الحرون ! الذى يهيج فى راعيه ، ولا يبالى : هل آذاه ، أم آذى نفسه !

أو هو كالوَعْل ، تَيْس الجبل ، يظل ينطح الصخرة ، حتى يُوهِى قرنه ويدغدغه ، وتبقى الصخرة على حالها لم يَضِرْها شىء .

وقديمًا ركب العناد قابيل بن آدم ، فأهلكه ، وملأ ابن نوح فأغرقه .وطمس العناد على قلب فرعون فأرداه وأهله أجمعين .

وكذلك قارون ،حين سمع النصيحة ، فازداد عُتوًا وغرورا ، وافتتانا بغناه ، وأصم أذنيه ، وركب رأسه ، ولبس أبهى حُلِله ، وأزهى حُلِيّه ، بالذهب ، وبأغلى من الذهب ، وركب

أمهر الركائب ، واستصحب أعوانه الشداد ، أربعة آلاف غنى أو يزيدون ، وخرجوا فى موكب حاشد ، ليغيظ الناعسين البائسين .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾

(القصص الآية ٧٩)

وفى صَلَفه وكبريائه ، وصعَّر خده للناس ، ومشى فيهم مِشية المرح والخُيلاءِ ، حتى فتن الناس ،وختَلهم عن إيمانهم ، وعلَّقهم بمفاتن دنياهم ، وأنساهم ربهم ، وشغلهم عن آخرتهم .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

(القصص الآية ٧٩)

* * *

وجنى على نفسه بعناده ، وجنى على الناس ، بأن شغل بالهم ، وبلبل أفكارهم ، وأسال لعابهم ، وحرَّقهم بنارْ التشوق والتلهُّف على مثل غناه ، وملأهم بالحسرة والأسى على ماهم فيه من فقر وحرمان ! وبثَّ فيهم روح التمرد على ما قسمه الله له ولهم من غنى وفقر .

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعْنا بعضَهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخْرِيًّا ؛ ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون .

* * *

وقال الذين أوتوا العلم ، واليقين ، ومُنِحُوا الرضى والتسلم ، ورُزقوا القناعة ، وحماهم الله شر الطمع والجشع ؛ قالوا للذين زاغت أبصارهم ، وتعلقوا بخيط الأمانى

﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

(القصص الآية ٨٠)

* * *

وإن الله ليُملى للظالم ؛ ويمدّ له حبال عصيانه ، ويُكثر عليه من مباهج حياته ، ويُغْريه بحُلو أمانيه وآماله ، حتى إذا أخذه لم يُفلِته .

وقد أخذ الله قارون بالخَسف ، فاندكَّ قصره وقصوره ، وغاصتْ فى الأرض خزائنه ، وتبخرتْ كبخار الماء أمواله ،وراح سلطانه كما يروح الليل ، وارتجفت القلوب من هول ما وقع عليه ، وتقلَّصت وَجَنات الناس فزعًا ورعبًا ، اعتبارًا بما حلَّ به .

* * *

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

(القصص الآيتان ٨١/٨٢)

قال ربُّنا ، ذو البطش الشديد :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(القصص الآية ٨٣)

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾

(النمل الآية ٨٩)

﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(النمل الآية ٩٠)

* * *